بنية الرمز في شعر خالد محي الدين البرادعي

بومدين تواتي
جامعة باجي مختار عنابة
كلية الآداب واللغات

الملخص :

للرمز حضوره اللافت في شعر البرادعي بما له طاقات تعبيرية خلاقة قادرة على استيعاب تجارب الشعراء، وترجمة انفعالاتهم شديدة التعقيد، وقد استطاع البرادعي أن يتجاوز هواجسه الشخصية إلى معالجة واقع أمته العربية، وهو وإن اغترف من عوالم خيالية تتجاوز العالم المحدود بماديته، فإن رموزه بقيت شفافة واضحة ، وقد تعددت أنواع الرموز التي وظفها فكان منها الرمز الديني والرمز الأدبي والرمز الطبيعي والرمز الأسطوري.

الكلمات المفتاحية:

الرمز –المتخيل –الأسطورة– الصورة الشعرية

Summary

The symbolism is present in the poetry of البرادعي because his expressive techniques, able to absorb experiences of poets and their emotions. البرادعي can address the reality of his arabic nation, and he was based on imagination, transcending the material world. Thah his imagination was clear. Their types of symbols are different: religion, literary, natural, and legendary.

Key words:
Symbol, imaginary, legend, poetry.

العـرض:

ورد في الذكر الحكيم قول الله تعالى:﴿ألا تكلم الناس إلا رمزا﴾ سورة آل عمران: ٤١" ومعنى الرمز تحريك الشفتين باللفظ من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين، وقد قيل إن الرمز هز إشارة بالعينين، أو الحاجبين أو الفم، والرمز في اللغة كل ما أشرت به إلى بيان بلفظ، أي بأي شيء أشرت، أبِفَمٍ أم بيدٍ أم بعينين والرمزُ والترمّزُ في اللغةِ الحركةُ والتّحركُ"[1] وهو وسيلة إيحائية " من أبرز وسائل التصوير الشعرية التي ابتدعها الشاعر المعاصر عبر سعيه الدائب وراء اكتشاف وسائل تعبيرية لغوية، يثري بها لغته الشعرية، ويجعلها قادرة على الإيحاء بما يستعصي على التحديد والوصف من مشاعره وأحاسيسه ، وأبعاد رؤيته الشعرية المختلفة، فالرمز إذن اكتشاف شعري حديث، فعلى الرغم من أن مصطلح الرمز ذاته بمعنى (التوحيد بين حدين أو طرفين) مصطلح قديم، فنحن لم تكن لدينا فكرة واضحة عن حقيقة الرمز إلا منذ وقت قريب"[2]وهو بمعناه في اصطلاح النقاد المعاصرين:"كل ما يحل محل شيء آخر في الدلالة عليه لا بطريق المطابقة التامة وإنما بالإيحاء أو بوجود علاقة عرضية أو متعارف عليها، وعادة يكون الرمز بهذا المعنى ملموسا يحل محل المجرد كرموز الرياضة مثلا التي تشير إلى أعداد ذهنية. وهناك وجه أكثر تعقيدا للرمز هو الشيء المحسوس الذي يوحي عن طريق تداعي المعاني إلى ملموس أو مجرد كغروب الشمس مثلا الذي قد يدعو إلى التفكير في حالات الضعف والسكينة والشيخوخة"[3] وهو أيضا "الإيحاء أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالتها الوضعية...هو المعنى الباطن المخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله"[4]. أما أدونيس فيعرفهبأنه: "(اللغة التي تبدأ حيث تنتهي لغة القصيدة، أوهوالقصيدةالتيتتكونفيوعيكبعدقراءةالقصيدة، إنه البرق الذي يتيح للوعي أن يستشف عالما لا حدود له، لذلك هو إضاءة للوجود المعتم واندفاع صوب الجوهري) فالرمز في رؤية أدونيس لا يأتي باعتباره محاولة للابتعاد عن المباشرة، بل يأتي باعتباره وعيا للعالم، فهو ما يتيح تأمل شيئ آخر وراء النص، فهو

على الدوام معنى خفي وإيحائي"[5]وليسالشعرإبهاما ولا تهويما بل هو: "عبور لمسارب الخيال بواسطة الحدس المكثف عن طريق الدلالات الرامزة التي تفتح دلالات عديدة لإثراء الانفعال الذي لا ينفصل بالطبع عن الفكر المصقول في لهب العاطفة ونارها. يقول بول فارلين: إن الرمز فن التعبير عن الأفكار والعواطف، ليس بوصفها مباشرة ولا بتعريفها من خلال مقارنات، أو تشبيهات مفتوحة، أو واضحة بصور محسوسة ولكن باقتراح ما هي هذه الأفكار والعواطف بإعادة خلقها في ذهن القارئ من خلال استخدام الرموز"[6] و للرمز معايير يقاس بها "من ناحية الطول والعمق، وهي تعتمد في جملتها على درجتي الانتشار والكثافة ومداهما، إذ يمكن للرمز أن يستغرق القصيدة بأكملها ، ويمكن له أن يشغل جزءا هاما منها يقع في جملة مقاطع أو أبيات، كما يمكن ألا يمتد بهذا الشكل بل يظل محصورا في نطاق محدود من القصيدة، الأمر الذي يؤثر في عملية التشكيل الرمزي ويحدد مداها نوعيا."[7] وتختلف دلالات الرموز تبعا لعوامل متعددة منها الحالة النفسية، ومنها ثقافة المجتمع، فدليل الحزن هو السواد عند البعض وهو اللون الأبيض عند آخرين، ولقد أثرى الرمزُ الصورةَ الشعريةَ عند البرادعي التي: "تغرف من عوالم خيالية تتجاوز العالم المحدود بماديته. لذلك يصعب تحديد جغرافية الصورة الشعرية، لأنها تتعامل مع الحدسوالمتخيل واللاشعور والأحلام وغيرها... ولكن إلى جانب ذلك، نلمس الطابع الرمزي الذي نجد له مرجعاً في الواقع العربي والذي يؤكد فعل مصادرة الإنسان وكرامته وسلامته"[8] فكانت رموزه مصدرا للتأثير والعمق الدلالي ، ارتقت بقصائده درجات في مصاف الإبداع الفني، على النحو الذي نتبينه في ما يلي:

الرمز الإنساني:

وهو الرمز الذي يكون الإنسان موضوعه، ويشمل الاعتبارات الخاصة بالإنسان ومشاعره وسلوكه والتي تميزه عن الآخرين من ناحية وعن غيره من الكائنات الأخرى في الكون من ناحية أخرى،سواءأكانت هذه الاعتبارات إيجابية كالرفق والإيثار والحرية والمحبة وغيرها، أو كانت سلبية مثل الأنانية والظلموالتمييز.

وقد استطاع البرادعي أن يرتقي ببعض الشخصيات الطبيعية فيجعل منها بؤرة إشعاع إيحائيغيرمحدود الدلالة،على النحو الذي نتبينه فيما يلي:

المرأة رمزاً:

وهي من الرموز التي أولاها البرادعي عناية فائقة ، وأخذت حيزا كبيرا من شعره، فهي فيه الزوجة، والمعشوقة، والحفيدة، والقريبة، والبعيدة، والحقيقة، والطيف، والمرأة عند البرادعي هي أحلامه الضائعة التي يبحث عنها أو يطاردها، وهي امرأة أسطورية متمنعة، ذات طاقات سحرية، تنفثها فتستحيل بها الحياة نعيما بعد شقاء وراحة بعد عناء. وفي هذا المعنى يقول:

قال عبد الله: هل تأتين،وحياً أو حضوراً
أو تمرَّيْنَ بأفقِ الوعيِ مثل الخاطِرَةْ
أحضري كي يرقصَ الشمعُ على أرصفةِ العُمرِ
وتخضَرَّ السنونُ المُقفرةْ
ويهلَّ الثلجُ أسرابَ فراشاتٍ وأرتَالَ حَمامْ
تنثرُ الضوءَ على بوَّابةِ الليلِ وتسقي الفترةَ المنكسرةْ
فاحضُري
–صوتُ عبدِ اللهِ محمولٌ على دمعتهِ وعذاب السَّيْرِ–
أوحُلِّي بهذا الوعَي حتَّى يكسرَ الشَّمعُ
ويطوي الثَّلجُ أحزانَ الفُصولِ الساهرةْ[9]

إن المرأة في شعر البرادعي موضوع مسقل بذاته، تقصر عنه هذه الكلمات، وهي تجربة نقرأ في تضاعيفها أحزان الشاعر، وأحلامه، وطموحاته، وموقفه من المجتمع، هي فضاء للبوح، هي خلاص الشاعر، وملاذه، وبلسمه الذي يداوي به مرارة أحلامه المحطمة.

يوسف العظمة:

رمز الكفاح الثوري المسلح ضد الاحتلال الفرنسي من أجل الحرية والاستقلال، بطل ملحمة ميسلون الشعرية، وهو شخصية تاريخية معروفة استطاع الشاعر أن يجمع فيه بين التجريدي والحسي:

يوسُفُ الْعَظْمَةُ كَالضَّيْفِ السَّماوِيّ أَطَلاّ
وأَتى يَخْتَرِقُ الْمأْلوفَ طَيْفاً عُلَوِيّاً
وعلى "دُمَّرَ" حَلاّ
كَوْكَباً مِنْ كِبْرِياءْ
أَوْ رَعيلاً مِنْ عَطاءاتِ السَّماءْ
أَوْ قَبيلاً مِنْ أَساطيرِ قُدامَى الْعُظَماءْ
وخيُوطُ الشَّمْسَ حاكَتْ
اسْمَهُ الْقُدْسِيَّ في زَهْوِ الْفَضاءْ
هكذا صَوَّرَهُ التّاريخُ
والتاريخُ لَمْ يَقْرَأْهُ غَيْرُ العاشقينْ
وَخِيارُ النُّدَماءْ [10]

فصورة يوسف هنا هي صورة رمزية متخيلة، فهو ضيف سماوي، وهو كوكب من كبرياء، وهو رعيل من عطاءات السماء، وهو قبيل من أساطير قدامى العظماء، وكلها حالات ترقى بيوسف العظمة لمصاف الرمز ، لأنها تبعث في نفس المتلقي رغبة في اكتناهه بعيدا عن العالم الحسي، فالكلمات تحيل إلى كائن بصفات تفوق الوصف البشري لأن الشاعر يتجاوز العلاقات الطبيعية لهذه الكلمات، ويخلق بالرمز الصورة المتخيلة لهذا البطل الاستثنائي .

رمز المسخ :يثورالبرادعي على الحكام الذين يراهم في أبشع صورة حين يمعنون في التسلط والاستغلال، ويتكالبون على هذه الأمة نهبا وتمزيقا، ولا يجد ما يرمز لهم في هذه الحالة إلا المسخ: فيقول:

الْمُرابـــــــونَ اسْـــــــتَحَلُّوا خَطْـــــــوَهُمْ
وَكَراسيهِمْ وَأَسْماءً عِذابا
فَهُنـــــامِسْـــــــــخٌ علـــــى كُرْسِـــــيِّهِ
وَهُنا مَنْ رَكِبَ الْعَرْشَ اغْتِصابا
وَلِكُـــــــــلٍّ مِنْهُمـــــــــا شِـــــــرْذِمَةٌ
مِنْ قُرودٍ نَسَجوا الْعُهْرَ ثِيابا
وَلِكُـــــــــلٍّ مِنْهُمـــــــــا داعِيَـــــــــةٌ
لَبِسَ النُّسْكَ كَقِدّيسٍ أَنابا[11]

والمسخ تحوّلٌ عن صورةٍ إلى ما هو أقبحُ منها ، وهو ينطبق تماماً على حاكم متنكر لإنسانيته ، يرى السعادة في استغلال بني جنسه من البشر الضعاف وامتهانهم، وهو سمسار لا هم له إلى الربح ولو باع في سبيله شرفه، والمصيبة العظمى أنه سمسار لأعداء الأمة:

فَـــــــالْوَلِيُّ الْمِسْـــــــــخُ سِمْســـــارٌ لِمَـــــنْ

شَوَّهوا الدُّنْيا وَلَمْ يَلْقَ الْعِقابا
إنَّ مِـــــــنْ أَحْلامِـــــــــهِ اسْـــــــــتِبْعادَنا
عَنْ مَجالِ الْبَغْيِ طَرْداً وَاجْتِنابا
لِيَظَـــــــلَّ الْفَـــــــرْدَ فـــــــي سَـــــــطْوَتِهِ
مُرْخِياً عَنْ رُؤْيَةِ النّاس نِقابا[12]

فالمسخ إذاً رمز الانحدار في مهاوي الظلم والاستعباد والاستغلال ، والتنكر لقيم الإنسانية النبيلة.

الطفل الفلسطيني محمد الدرة:

الذياستشهد يوم 30 سبتمبر 2000 بين ذراعي والده، في إطلاق نار عشوائي من قبل الاحتلال الصهيوني، وهو لم يتعد بعد من العمر اثنا عشر عاما، ولم تجد مناشدة والده للجنود المدججين بالسلاح أن يتوقفوا، فكان قتلا متعمدا نقلته وكالات الأنباء عبر العالم، ولم يكتف العدو بهذه الجريمة بل زادها جريمة أخرى لا تقل بشاعة حين زعم أن الطفل محمد قتله فلسطينيون لتشويه صورة الجيش الإسرائيلي لدى الرأي العام الدولي. وقد استطاع البرادعي أن يعبر عن تأثره العاطفي والانفعالي بهذه الحادثة، منطلقا من الواقع الذي عبرت عنه الصورة، بفعل إبداعي متخيل يرقى بالبطل محمد الدرة إلى مصاف الرمز، وينادي:

-: أَيُّها الْعَصْرُ الرَّصاصِيُّ
وَبِالْعُهْرِ مُمَرَّدْ
اِنْطَلِقْ مِنْ قَبْضَةِ الْطُّغْيانِ حيناً وَتَزَوَّدْ
مِن دَمِ الطِّفْلِ مُحَمَّدْ
دَمُهُ يَنْبوعُ عِشْقٍ وَسَلامْ
سال بَيْنَ الْقُدْسِ وَالأَنْبارِ
وَاسْتَلْقى عَلى وِدْيانِ نَجْدٍ يَتَجَدَّدْ[13]

ومحمد الدرة رمز للثمن الذي يجب دفعه لتعود البلاد المغتصبة لذويها موفورة الشرف، وسبيل المخلصين والمناضلين، وينبوع العشق والسلام ، هو طيب زاده الاحتراق اشتعالا وألقا، عمّ البلاد العربية كلها ، منذرا بصبح قريب يزيل عنها الغشاوة التي رانت عليها ردَحاً طويلا من الزمن:

لا تَقولوا جَفَّ شِرْيانُ مُحَمَّدْ
إنَّ أَهْلِ الْمَغْرِبِ الأَقْصى
وَوَهْرانَ وَأَهْلَ الْقَيْرَوانْ
أَخْبَرونا أنهم شَمُّوا عَبيرا
وطُيوباً وبَخورا
حَملتْها الريحُ من بعضِ نواحي عَسْقَلانْ
هَيَّجَتْ سُكّانَ عكَّا والْجلَيلْ
فامْتَطوا أكبادَهُمْ
وامْتَشَقوا الأَحْجارَ مِنْ حَيْفا
ومِنْ أَرْضِ الْخَليلْ
فاسْتحالت بينَ أيديهم حُداءً وصَهيلَ
ونُجوماً أَشْرَق التاريخُ منها
ليَرى الصبحَ الجميلْ

محمد الدرة أيضا فتيل يقظة تنزع عن الأمة ثوب الحزن والخوف، وهو حادي الأمة إلى القمم والمعالي، ونجمها الهادي إلى الصبح الجميل صبح الحرية الحمراء، والسعادة المطلقة.

الرمز الطبيعي:

وقد اتخذ البرادعي للتعبير الرمزيالقوالب القصصية بما تحويه من طابع سردي حواري, و هو ما لاحظناه بقوة في كثير من عناوين قصائده الموجهة للناشئة من ديوان حكايات شعرية للفتيان وهي:(التفاحة، شجرة اللؤلؤ،صغار الكنار، حبة القمح، ثمرة الجوز) وهي خمس قصائد من أصل اثنا عشر قصيدة[14].

1. رمز الحمامة:

كثيرا ما يرتبط ذكر الحمامة بالسلام والأمن والطمأنينة، غير أن الشاعر اختار المفارقة حين جعل الحمامة راعفة متألمة، تصارع الموت ، في ظل الخراب الذي بلغ مداه، والطغيان الذي طال الإنسان والطبيعة معا، حين يمارس المحتل همجيته عليهما ، وتطغى لغة السلاح والنار على معاني السلامفي قوله:

شاهدتْ فاطِمةٌ قطرة دمْ
لم تزل ساخنةً ترعفُ مِنْ ثَغْرِ حَمامَة
ساءلتها: أنتِ؟ أقلقت إذَن راحتهم
فاستسلمي للموتِ في ظلِّ الخَرابْ
واجمُدي في مُقلةِ الطاغي إلى يومِ القيامهْ
إنْ يَكُنْ مُنقِذَ هذا الكونِ في عَصْرِ اليَبابْ
رأسُ طفلٍ
أو هديلٌ لِحمامهْ[15]

فالحمامة ضحية مغلوبة على أمرها ، فلا فرح ولا هديل ، بل هي تستسلم لمصيرها المحتوم، وموتها المحقق، وهو انزياح بدلالة هذا الرمز عن المألوف، يشعرنا بعمق المأساة، حين يتخيل بعض الناس أن الله قد أوكل لهم التحكم في مصائر الناس.

2. أسراب الفراشات:

للفراشة دلالات مختلفة باختلاف الشعوب ، غير أن المتعارف عليه أنها تبعث الطمأنينة والفرح في النفوس، وهي رمز الحرية والانعتاق، كما أنها ترتبط بالربيع رمز التجدد والحياة والخصب ، وهو ما نجده في قول البرادعي:

لِمَ لا أَسْرَحُ في البَرّيَّةِ الخَضْراءِ
بَيْنَ العُشْبِ وَالجَدْوَلِ وِالنَّسْمَةِ
مَصْحُوبَاً**بِأَسْرَابِ فَراشاتٍ** نَدِيَّاتٍ
وَرَفٍّ مِنْ عَصافيرِ وَفي الأُفُقِ
مِنَ الطَّيْرِ وَأَسْرابِ الْفَراشاتِ مَدَدْ؟[16]

غير أن المحتل يأبى هذا الفرح ، ويسلط ظلمه شواظا يحرق به كل جميل في هذا الوجود، فيطال مغاني الطبيعة كلها ومنها الفراشات:

زَحَفْتْ في هذهِ اللَّحْظَةِ آلاتُ الدَّمارْ
تَحْتَ طوفانٍ مِنْ الْمُهْلِ الْجَحيمِيّ

وسَيْلٍ مِنْ دُخانٍ
يَتَحَسىَّ
سُنْبُلَ الزَّرْعِ
وأَعْشاشَ الْعصافيرِ
وأَسْرابَ الْفَراشاتِ
ونَسْجَ الْعَنْكَبوتْ
وابْتِسامَ الْعُشْبِ
والصَّبَّارَ والشَّوْكَ
وسِرْبَ النَّحْلِ في عَوْدَتِهِ لِلْمَلِكَه
ورآى يوسُفُ وادي مَيْسلونْ
وَجْبَةً مِنْ حَجَرٍ، مِنْ عُشْبٍ
مِنْ حُلُمٍ، مِنْ أُفُقٍ،
مِنْ نَبْعِ ماءٍ خَجلٍ
تُطْعِمُ طاغوتَ فَرَنْسا[17]

وكذلك في قوله:

لا تَجبُوّا الزّهْرَ والنَّخْلَ ولا
تَذْبَحواسِرْبَ الفراشاتِ
وأطيْارَ الحمَامْ
كُلّها تَشْهَقُ نَحْوَ الصُّبْحِ
مِنْ غَيْرِ سُيوفٍ أوْ سِهامْ
فاتركوا أَعْشاشها
مَنْسوجَةً مِنْ كُبَّةِ العُشْبِ
ومِنْ غَزْلِ النّدى
إنَّها تَسْبَحُ في الضّوءِ
وتَلْهو في الظَّلامْ [18]

تظهر المفارقة هنا أيضا وجه الاستعمار القبيح، ويمكن استجلاء الدلالة الرمزية للفراشات، التي تسقى بماء المهل الجحيمي، وتذبح حقدا ، وهي تلهث نحو صبح الخلاص والحرية ، فالفراشات هي كل شيء جميل في البلاد العربية طالته يد الظالم المغتصب فأحالته أثرا بعد عين.

3. **الصاعقة:**

وهي عنوان قصيدة من قصائد ديوان: يوم غابت فاطمة، وفيها يخاطب نديما من ندمائه غاب عنه واغترب، يطلب عودته ويذكره بمواثيق غلاظ كان قد أخذها منه ، وفيها يشكو زمانه وعصره الذي تردى، وقساوة الاغتراب في الوطن المنفى ومنها:

كَيْـــــــــفَ تَنْســـــــــى قَـــــــــدَحاً أَتْرَعْتَـــــــــهُ
مِنْ حَناياكَ اشْتِياقاً وَارْتِقابا
هَـــــــلْ هِـــــــيَ الْغُرْبَـــــــةُ فيـــــــكَ اسْـــــــتَيْقَظَتْ
لِتَرى فيها مَقاماً مُسْتَطابا

ناسِـــــــــياً مَرْحَلَـــــــــةً نَحْـــــــــنُ بِهـــــــــا
كُلُّ لَمْحٍ مَرَّ يَسْتَدْعي حِسابا
وَالَّـــــــــذي يَـــــــــأْتي فَمِـــــــــنْ أَرْواحِنـــــــــا
يَسْتَمِدُّ النُّسْغَ ماءً وَحَبابا
أَمْ تَقَصّـــــــــاكَ قُنـــــــــوطٌ عاصِـــــــــفٌ
أَمْ تَرى يَحْتَمِلُ الْعُمْرُ الْغِيابا
وَكِلانـــــــــا قَـــــــــدْ طَـــــــــوى خَمْســـــــــينَهُ
في ثَنايا الدَّهْرِ جُهْداً وَاضْطِرابا
نَحْفِـــــــــرُ اللَّيْـــــــــلَ بِأَظْفـــــــــارٍ بَـــــــــدَتْ
مِنْ بَنانِ الْفَجَرِ نُهْديها الْخِضابا
لا تُغـــــــــامِرْ بِهُـــــــــروبٍ عابِـــــــــثٍ
تَحْتَ جُنْحِ اللَّيْلِ يَأْساً وانْسِحابا
هـــــــــل سَيَشْـــــــــفى الْجُـــــــــرْحُ إِنْ غَطَّيْتَـــــــــهُ
أَمْ سَيَزْدادُ نَزيفاً وَالْتِهابا
نَحْـــــــــنُ فـــــــــي قَـــــــــرْنٍ مِـــــــــنَ الـــــــــدَّهْرِ امْتَطـــــــــى
صَهْوَةَ الرُّعْبِ جُنوناً واصْطِخابا
وَزُرِعْنـــــــــا نَحْـــــــــنُ فـــــــــي آخِـــــــــرِهِ
مَطْعَماً لِلْخَوْفِ يُجْنَى وَمُصابا
عُـــــــــدْ فَـــــــــإِنّي لا أَرى مُتَّسَـــــــــعاً
يَمْـــــــــنَحُ الْعُمْـــــــــرَ مِـــــــــنَ اللَّهْـــــــــوِ اقْتِرابـــــــــا

فالصاعقة رمز لكل تلك المعاناة، وذلك التخلف الرهيب الذي تعيشه الأمة، فرمزية الصاعقة تجعل عددا من المعاني تتداعى إلىالذهن و تصب كلها في بؤرة دلالية واحدة هي الصدمة، والحزن العميق والخيبة القاتلة.

الرمز التاريخي:

وقد كان هذا الرمز الأكثر استدعاءً، بالنظر لفاعليته"حيث يمكنللشاعرأنيقيم نوعاً من المقابلة بين ماضي العرب الذهبي وحاضرهم. وفي هذهالمقابلة، يتم حفز الوعي الجمعي من خلال اكتشاف الهوة بين الماضي والحاضر"[19]ومن هذه الرموز:

1. **هولاكو:**

وهو قائد القبائل المغوليةالتي اجتاحت الشرق العربي وبلاداً إسلاميةأخرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ذلك السفاح الذي حول بغداد أنهارا من الدماء حين دخلها فإنه :"أمر بقتل الخليفة ، فقتله عساكره رفسا بالأقدام، وقيل خنقا، ثم مالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان...وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الموقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف، ولم ينج أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى...وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن، كلها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس وهم في خوف وجوع وذلة وقلة"[20] ويوظف البرادعي هذا الرمز في شعره في عدة مواضع منها:

قيلَ: هولاكو صَحا مِنْ مَوْتِهِ

يَوْمَ الصَّليبيُّونَ زاروهُ وَعادَ الْمُجْرِمانْ
لِحِياضِ الْقُدْسِ في عَصْرٍ

صلاحُ الدينِ لا يَعْرِفُهُ وْالْعُمَرَانْ
رَأَيا طائِرَةً تَغْتالُ طِفْلاً نائِماً
وَالْمَوْتُ يُخْفي ظُفْرَهُ تَحْتَ عباءاتِ الْبَيانْ
وَهُما هَلْ يُبْصِرانْ
كَيْفَ تَغْتالُ الصَّواريخُ الْعَصافيرَ
وَأُمَّاً تُخْبِئُ الطِّفْلَةَ في الْعَتْمِ
وَيَبْدو الْمَشْهَدانْ
طِفْلَةٌ قَبْلَ أَوانِ الْحَبْو فَوْقَ النَّعْشِ
والنَّعْشُ يُغْطِّي الْوَطَنَ الْمُمْتَدَّ
مِنْ ضاحِيَةِ الأَحْساءِ حَتَّى طَنْجَةٍ
وَالْقُدْسُ نارٌ وَدُخانْ[21]

يستدعي البرادعي هولاكو رمزا لسفاح جديد لا يقل عنه دموية هو العدو الصهيوني حين ارتكب جريمته البشعة في حق الإنسانية والطفولة بقتله الرضيعة ايمان مصطفى حجو، ذات الشهور الاربع فقط ، بقذائف اخترقت جسدها الصغير، يوم التاسع من ايار مايو عام 2001، فالتطابق قائم بين هذين السفاحين وما ارتكباه من جرائم تجلب الأسى وانكسار القلب، ثم يعود البرادعي مرة أخرى ليستدعي الرمز نفسه في قصيدة كاملة بعنوان هولاكو[22] بمناسبة غزو العراق من قبل الولايات المتحدة (هولاكو الجديد الذي امتطى إليها طائر الفولاذ) ليبعث في النفس حالة من الكراهية لهذا الغازي الجديد، تبررها جرائمه الشنيعة.

2. **صلاح الدين الأيوبي:**

إن صلاح الدين الأيوبي هو رمز لشرف هذه الأمة ونضالهاالمستميت في سبيل نيل حقوقها المهضومة، والدفاع عن حرماتها، لكن صلاح الدين مضى وبقيت الأمة تحن إلى رجع صدى صوته حين أذن في القدس ، ولا من مجيب من العرب الذين قتلهم سلاح الصمت الرهيب ، وناموا عن المجد، فهو يذكرنا بقصيدة أمل دنقل حين وصف صلاح الدين بالطبل البدائي الذي تراقص الموتى على إيقاعه المجنون، فرمز صلاح الدين يقرع أسماعنا لا ليملأها فخرا بماض تليد ، بل ليكشف عورات هذا الجيل الذي لم يحافظ على أمجاد أسلافه، يقول:

وَسِلاحُ الصَّمْتِ يَغْتالُ الْعَرَبْ
مِنْ مُلوكٍ وَشُيوخٍ
وَسَلاطينَ وَأَعْرابٍ
وَضُبَّاطٍ وَفُرْسانٍ
نَسَوْا رَفْعَ السِّنانْ
كُلُّهُمْ خاروا أَمامَ الْغَزْوِ
وَالْغازي يَهودِيٌّ جَبانْ
وَتَحاشوا سيرَةَ الْفَتْحِ الْعُروبيّ
وَمَنْ أَوْقَدَ مِصْباحاً على سارِيَةِ الصّينِ
فَغَطَّى اللَّيْلَ في قُرْطُبَةٍ
وَالْكَوْنُ يَصْغي لِلأَذانْ

أَذَّنَ الصُّبْحَ صَلاحُ الدِّينِ في الْقُدْسِ

وَمِنْ خَمْسينَ عامْ

مَنْ ترى خَلْفَ صَلاحِ الدِّينِ قَدْ لَبَّى الأَذَانْ

إِنَّهُ الطِّفْلُ الَّذي ضَمَّ بِكَفَّيْهِ الْحَجَرْ

وَتَوَلاَّهُ كَما الأُمُّ بِعَطْفٍ وَحَنان

هي الخيبة المدوية ، تصم الآذان عن النداء المرفوع من صلاح الدين،فلا يسمعه إلا أطفال الحجارة أولئك المدافعون عن شرفنا.

3. الخيمة العربية:

يعود الشاعر عبر الخيمة إلى التراث العربي المجيد، محاولا عبره أن يقرأ واقع الأمة الراهن ، والخيمة بيت بسيط فهو خباء على أعمدة من شجر الصحراء، لكنها حوت نفوسا كبارا ، فكانت مهبط العز واليمن والمعالي:

مَهْبَطَ الْعِزِّ بارَكَتْكِ السَّماءُوَتَتالَتْ مِنْ حَوْلِكِ النَّعْماءُ
خَيْمَةٌ أَنْتِ أَمْ مَنازِلُ يُمْنِطَيَّبَتْها الشَّمائِلُ الْعَرْباءُ
أَمْ سِباقٌ إلى الْمَعاليَ بعيدٌنِلْتِهْ باهِراً فَهَلَّ الثَّناءُ
لا دُعاءً وَلا رَجاءَ نَجِيٍّيَتَمَنَّى وَالأُمنِياتُ قَضاءُ
مَوْسِماً كُنْتِهِ سَخِيّاً نَدِيّاًتَتَدَلَّى مِنْ أُفْقِهِ الآلاءُ
لَسْتِ نَسْجاً مِنَ الْخُيوطِ كَثَوْبٍتَرْتَديهِ لِتَدْفَأَ الْبَيْداءُ
أَوْ وِساماً مِنَ التَّخَلُّفِ كانَتْتَتَباهى بِرَفْعِهِ الصَّحْراءُ
أَوْ كِساءً لِحِقْبَةٍ مِنْ زَمانٍقالَ عَنْها الْغاوونَ: بِئْسَ الْكِساءُ
أَنْتَ رَمْزٌ لِغابِرٍ عَبْقَرِيّفي بَقاياهُ يَحْتَمي الأَوْفِياءُ
وَكِتابٌ مِنَ الْمَكارِمِ يُتْليَوْمَ أَوْدَتْ بِأَهْلِها الأَهْواءُ
وَتَأَتَّى الضَّياعُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍوَتَباهَتْ بِرَكْبِهِ الظَّلْماءُ
واسْتَذَلَّ الْعُقوقُ كُلَّ هَجينٍسادَ حيناً وَماتَ فيهِ الْوَلاءُ
أَنْتِ يا خَيْمَةَ الْجُدودِ مَزارٌوَمَنارٌ إِنْ جُنَّتِ الأَنْواءُ
مِنْ مَقامِ الْقِرى لِنَدْوَةِ عِزٍّلِمَلاذٍ يَخْتارُهُ الْكُرَماءُ
وَمَثارٌ لِذِكْرياتٍ عِذابٍأَيْقَظَتْها الْمَواقِفُ الْقَعْسَاءُ

والبرادعي يقارن بين زمنين: زمن الخيمة العربية وزمن الخيبة العربية، حين سقط عمودها وانهارت على ساكنيها، ولم يعد لها حظوة عند ساكنيها وأعداءها على السواء، فالخيمة عنده رمز لكل شيء جميل مرتبط بذلك الماضي الخالد، لا يذكره إلا الأوفياء:

أَنْـــــــتَ رَمْـــــــزٌ لِغـــــــابِرٍ عَبْقَـــــــرِيٍّ
فـــــــي بَقايـــــــاهُ يَحْتَمـــــــي الأَوْفِيـــــــاءُ

وهو يشكو لها الضياع والعقوق والأنواء وموت الأنفة والشهامة العربية.

الرمز الأسطوري:

"تتخذ *الأسطورة* أنماطاً ترامية، وألواناً زاهية، وآفاقاً متنوعة في الشعر العربي المعاصر عموماً، انطلاقاً من أن *الأسطوري* نمط من أنماط التعبير عن العالم والإنسان في علائقهما وتحولاتهما المستمرة، ويمكن هذه الأنماط أن تتخذ طابع التغيير على المستوى الدلالي، وليس على المستوى الشكلي الظاهراتي، ذلك أن المحمول الرمزي للشكل الأسطوري يتخذ آفاقا متعددة ، توحي بدلالات جمة، حيث إن الأسطورة انصهار في اللغة، وامتداد لكونيتها، بخلاف الرمز الذي لا يرتبط إلا بالسياق الوارد فيه، وحيث كان الرمز فرديا ذاتيا، راحت الأسطورة تبحث عن الوحدة والتقاء الوعي الفردي والجماعي بعدم الوعي الفردي والجماعي في آن، ذلك أن ما يميزها هو نزوعها الباطني نحو اختراق الآفاق المجهولة، وتفجير مكامنها الخبيئة" [23] ومن أمثلة ذلك عند البرادعي:

طائر العنقاء:

وهو طائر أسطوري:" يحرق نفسه، لكنه يبعث في رماده، ليعود أكثر شباباً بادئاً دورة حياتية جديدة"[24]فهو أسطورة من أساطير الحياة المتجددة، تعيد نفسها كلما شارفت على الموت:

- هُوَ ناموسُ الْخَوارِقْ
هل رأيتَ اثنينِ يايوسُفُ
يَجْتاحانِ سِرَّ الْمُعجِزَهْ؟
أَوْ عظَيمينِ مَعاً
يَخْرِقانِ السائِدَ الْمأْلوفَ في كَشْفِ حِجابْ؟
هُوَ سِرُّ الْبَطَلِ الْفَرْدِ النَّبيلِ الثَّبْتِ
إنْ يَفْرِدْ جَناحَيْهِ
ويَقْفِزْ مِثْلَما الْعَنْقاءُ مِنْ قَلْبِ الْهَبابْ
واحِدٌ مَنْ يَبْدَأُ الشَّوْطَ
كَشُؤْبوبٍ مِنَ الْغَيْثِ
ويَهْمِي الْغَيْثُ مِنْ كُلِّ السَّحابْ
واحِدٌ مَنْ يَنْزِعُ السِّتْرِ عَنِ السِّرِّ
لِتَنْهارَ عُصورُ الإغْتِرابْ
بَطَلٌ يفردُهُ التاريخُ
كَالأُسْطورَةِ الْخَضْراءِ
كَيْ تَقْتَحِمَ الأُمَّةُ أَبْوابَ الإيابْ[25]

و الشاعر يرى في يوسف العظمة صورة من صور طائر العنقاء، فهو في اقتحامه الموت ، يرتاد للأمة آفاقا جديدة، ويحميها من الموت والاندثار، وموته يهب لأمته الحياة، وبالموت تتجدد الأمة وتحيا، فهو أول الغيث وشؤبوب السحاب المنهمر على هذه الأرض الضمأى.

الأسطورة اليهودية:

تقول *الأسطورة اليهودية*"إن السيف والتوراة نزلا من السماء معا"، وقد جاء ترتيب السيف قبل كتابهم التوراة، على النحو الذي يمكننا معه معاينة طبيعة تلك الدولة القائمة على غريزة القوة وعلى شهوة سفك الدماء والقتل"[26] وقد كان لهذه الأسطورة حضورها في شعر البرادعي إذ يقول:

يَجيءُ الْيَهودُ إلى فِلِسْطينَ مِثْلَ الْجَرادْ
بأَجْنِحَةٍ صاخِبَهْ

وَأَلْسِنَةٍ كاذِبَهْ
يَجوسونَ في الْقُدْسِ أَرْجالَ رِجْسٍ
عَدُوُّهُمُ الطِّفْلُ
وَالطَّيْرُ
وَالْياسَمينْ
وزَيْتونَةٌ لاغِبَهْ
لِعائِلَةٍ هارِبَهْ
تُعْلِّمُهُمْ أَساطيرُ سِفْرٍ هَجينْ
أَنَّ قَتْلَ صِغارِ الْعَرَبْ
وتَهْديمَ دورِ الْعَرَبْ
وتَصْحيرَ بَيَّارَةِ الْبُرْتُقالْ
خَلاصٌ لهم مِنْ عَذابٍ مُهينْ
تَلَقُّوهُ عَبْرَ الْقُرونْ[27]

تزعم هذه الأسطورة أن القتل والتهديم والتصحير أمر لا بد منه حتى يتحقق الخلاص لليهود، وتعود لهم السيادة، ولا يسلم من ذلك لا طفل ولاشجر ولا طير ولا زهر، والشاعر حين يوظف هذه المزاعم فلقصد نقضها وفضح أصحابها ، وبيان تهافتهم في ميزان الإنسانية.

الهوامش والإحالات:

[1] أبو إسحاق إبراهيم بن السّري الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ج1، ط1، 1988، ص409.

[2] علي عشري زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة ابن سينا ، ط4، 2002، ص104.

[3] مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، 1984، ص181.

[4] أسماء خوالدية، الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، منشورات الاختلاف، ط1، 2014، ص17-18.

[5] عبد العليم محمد اسماعيل علي، ظاهرة الغموض في الشعر الحديث، دار الفكر العربي، ط1، 2011، ص211.

[6] رجاء عيد، لغة الشعر قراءة في الشعر العربي الحديث، منشأة المعارف، دط، 1985، ص106.

[7] صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر، دط، 1998، ص113.

[8] عبد الكريم ناصيف وآخرون، الشاعر الدكتور خالد محي الدين البرادعي، شهادات ودراسات، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2005، ص103-104.

[9] عبد الله والعالم،منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1993، ص88.

[10] ميسلونملحمة شعرية في أحد عشر فصلاً،منشورات اتحاد الكتاب العرب،1999،ص78.

[11] يوم غابت فاطمة، منشورات اتحاد الكتاب العرب،2003،ص26.

[12] المصدر نفسه، ص37.

[13] المصدر نفسه، ص87.

[14] حكايات شعرية للفتيان،منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000.

[15] عبد الله والعالم، ص81.

[16] المصدر نفسه، ص112.

[17] ميسلون، ص156-157.

[18] المصدر نفسه، ص113-114.

[19] عبد العزيز موافي، تحولات الشعر العربي المعاصر، علامات، ج70، مج18، أغسطس 2009، ص172.

[20] ينظر جورج طرابيشي، هرطقات 2عن العلمانية كإشكالية إسلامية -إسلامية، دار الساقي،ط1، 2008، ص31.

[21]يوم غابت فاطمة، ص101-102.

[22]المصدر نفسه، ص196.

[23]عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربي الحديث،دار صفحات للدراسات والنشر، ط1، 2012، ص188.

[24]نواز حمد عمر خوشناو، المفارقة في شعر بلند الحيدري، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط1، ص242.

[25]ميسلون، ص27-28.

[26]يوسف نصر الله، تداعي الأسطورة: مقاربات نقدية لمشهدية الحرب السادسة، دار الفارابي- بيروت، ط1، 2011، ص101.

[27]يوم غابت فاطمة، ص71-72.